شريكٌ فاعلٌ مع الذكاء الإصطناعي

ستُّ قواعد عمل لعلاقة تفاعلية خلّاقة

فلاح حكمت اسحق*

في عالمنا المعاصر الذي يتغيّرُ بسرعة مذهلة، لم يَعُد السؤال هو **كيف نستخدم الذكاء الإصطناعي؛** بل **كيف نُفعِّلُ ذكاءنا البشري كي نستخرج أفضل ما في الآلة؟**. الذكاء الإصطناعي، وبرغم ما يُبديه من قدرات خارقة، ليس سوى مرآة تعكسُ عُمْقَ الأسئلة التي نطرحها، وجَوْدة الأفكار التي نتفاعل بها معه؛ ومع أنّ معظم الخطابات العامة تحوم حول خوفٍ طاغٍ منه أو انبهار يبلغ حدّ الهَوَس المَرَضي به، يبقى الجانب الأكثر إغراءً هو : **كيف نصبح أكثر ذكاءً في تعاملنا مع الذكاء الإصطناعي؟**

هذا الموضوع محاولة شخصية لبناء (قواعد) تفكير، لا تُبرمج الآلة بل تُبرمج الإنسان على التفاعل مع الآلة بكيفية أكثر وعياً وفاعلية وإبداعاً. إنّها قواعد بشرية ناتجة عن تجربتي المباشرة في مشغلي التفاعلي مع الذكاء الإصطناعي وليست نتاج قراءات في كتب أو مُلخّصات أو أطروحات أكاديمية رغم قناعتي أنّ كثيرين لا بدّ قد اختبروا ما اختبرت وسَعوا لتدوينه ونشره في أوسع نطاق ممكن. ما أسعى إليه هو علاقة بشرية مثمرة وكفوءة مع الآلة، وبمقاربة تعتمد الشراكة الفكرية النشيطة بعيداً عن علاقة التبعية أو الهيمنة أو الإسترخاء البشري الكسول مع مُخْرَجات الآلة. من المفيد أن نتذكّر دوماً أنّ الذكاء الإصطناعي يمكنُ أن يضاعف الذكاء البشري لمَدَيات عظيمة ويفتح أمام البشر آفاقاً واسعة؛ لكنّه يحتاج لذكاء بشري تفاعلي وديناميّ لا يكتفي بالنتائج الجاهزة. الكسلُ الذهنيُّ والإسترخاء في مِهاد الإجابات الجاهزة هما ألدّ أعداء تخليق علاقةٍ تفاعلية متقدّمة مع الذكاء الإصطناعي. هذه العلاقة تتأسّسُ على قواعد عمل:

<u>القاعدة الأولى</u>: الذكاء الإصطناعي سيكون ذكياً معك بمقدار ذكائك في التعامل معه

هناك خطأ شائع بين مستخدمي الذكاء الإصطناعي: التعامل معه كما لو كان محرّك بحثٍ كبيراً بواجهة مُحادثة أنيقة. تُطرَحُ عليه أسئلةٌ عامة، غائمة، سريعة وغير موجّهة، تشبه تلك التي يقذف بها الطلبة بعضهم في قاعة درس قبل دقائق من الإمتحان، وحين تأتي الإجابة بدورها عامة، يخرج المُستخدِمُ بانطباع سيئ: **(أهذا كلُّ ما يستطيعُ الذكاء الإصطناعيُّ فعلَهُ؟).** الحقيقة معكوسة تماماً: أنتَ من يحدّدُ عُمْقَ (أو بمعنى أدق: ذكاء) الذكاء الإصطناعي، لا العكس.

لنتعاملْ بمثال. السؤال الذي يكتفي بالقول: **(حدّثْني عن التشابك الكمومي Quantum Entanglement)** لن يساوي شيئاً على المستوى المفاهيمي بالمقارنة مع سؤال آخر يقول: **(كيف يمكن أن نوفّق بين مبدأ آينشتاين في ثبات سرعة الضوء في نظرية النسبية الخاصّة مع مبدأ التشابك الكمومي؟).** في السؤال الأوّل نحصل على ملخّص مدرسي باهت؛ أمّا في السؤال الثاني فسنفتح بوابة لمحادثة علمية متقدمة تتجاوزُ حدود المهارة التقنيّة في السؤال نحو خوارزمية ذهنية مفادُها البدءُ من تفاصيل دقيقة، ثم استدراج الآلة إلى الأعماق الفكرية بدل القبول بالسياحة الفكرية الفضفاضة على السطح. عندما تُصاغُ الأسئلةُ كما لو أنّ المرء يكتب مقدّمة كتاب بدلاً من أن يكتب تغريدة عابرة فحينها لن يدهشنا الذكاءُ الإصطناعي

بقدراته فحسب؛ بل سنندهشُ كذلك لرؤية ذكائنا وهو يتوسّعُ ويمتدُّ أثناء الحوار. يبدو الأمر في المناقشات الفكرية المثيرة مع الذكاء الإصطناعي كأنّك تحادثُ شخصاً بقدراتٍ معرفية لا حدود لها؛ لكنّه يريدك أن تُبدي بعض الندّية معه حتى لا يصيبه الخذلانُ الفكريُّ والعطالة التفاعلية.

القاعدة الثانية: أعد رؤيتك لعلاقتك بالآلة قبل أن تطلب منها أن تفكّر

ثمة اعتقاد منتشر على أوسع النطاقات: الذكاء الإصطناعي ليس أكثر من آلة تبدو ذكية بفضل نمطٍ من الحسابات الإحصائية والحوسبة فائقة السرعة مع البيانات الضخمة. هذا خطل كبير. لو كان الأمر على هذه الشاكلة فلماذا صار الذكاء الإصطناعي هو العنوان الحالي للثورة التقنية؟ ولماذا هذا الإفراط المالي في الصرف على تقنياته بلا حساب واعتبارها جزءاً أساسياً في معادلات القوة الستراتيجية الدولية؟

هذا الانطباع-وإن كان يحمل جزءاً من الحقيقة التقنية- من شأنه أن يهدم قدرتنا على رؤية الإمكانات الهائلة التي تنمو أمامنا. هذا الإنطباع يُقزّمُ الذكاء الإصطناعي إلى (أداة)، ويقلّص علاقتنا به إلى (استخدام روتيني)، ويجعل المستقبل يبدو كنسخة مُحسّنة من الماضي. الذكاء الإصطناعي اليوم ليس آلة حاسبة متقدمة، ولا محرّك بحث مُعدّلاً فحسب. إنّه منظومة لغوية-

معرفية قادرة على بناء احتمالات، وربط سياقات، وتوليد علاقات، وإبداع نصوص وصور وحلول لم يكن الفرد قادراً على إنتاجها بمفرده. بهذا المعنى يصبح المهمّ هو **(ما الذي يمكنني التفكيرُ به بمعية الذكاء الإصطناعي؟)** بدلاً من السؤال التقليدي الذي غاب واندثر **(ما الذي يفعلهُ الذكاء الإصطناعي؟).**

علاقة الإنسان المعاصر والمتمكّن تقنياً مع الآلة هي شراكة معرفية لا محض (تنفيذ أوامر)، ولكي تكون هذه العلاقة فاعلة فهي تتطلّبُ كسر ثلاثة أوهام: الأوّل هو وهْمُ أنّ الذكاء الإصطناعي مجرّدُ نسخة أسرع من الويكيبيديا. الحقيقة أنّ الذكاء الإصطناعيّ يعمل بطريقة مختلفة جذرياً عن عمل محرّكات البحث التقليدية لأنّه يخلق معرفة جديدة ولا يكتفي بالبحث عن معرفة موجودة مسبقاً. الثاني هو وهْمُ أنّ الذكاء الإصطناعي يحلُّ محل التفكير البشري؛ بينما دورُهُ الحقيقي هو توسيع مساحات التفكير، لا إلغاؤها. الثالث هو وهْمُ الحذر المفرط الذي يعتبر كل تطوّر تقني ثوري خطراً محدقاً. الخوف مفهوم؛ لكنه يصبح عقبة حين يتحول إلى (عقيدة) مؤدلجة ذهنياً، تمنعُ التجربة والإبداع.

حين نتخلّص من هذه الإنطباعات المُقيِّدة، نبدأ في رؤية الذكاء الإصطناعي كإمتداد طبيعي لخيالنا. عندها فقط ينفتحُ باب الأسئلة

الحقيقية:كيف أجعلُ الذكاء الإصطناعي يفكرُ معي في علاقة شراكة كاملة من غير تبعية أو هيمنة؟ وكيف أكتب نصاً لا يمكن لأحد أن يعرف أين يبدأ الإنسان فيه وأين ينتهي الذكاء الإصطناعي؟ والأهمّ من كل هذا: كيف يمكن أن نبتكر معاً أفكاراً لم توجد من قبل، لا بشرياً ولا آلياً؟

القاعدة الثالثة: دوّنْ ملاحظاتك قبل أن تسأل

من المفارقات المثيرة أنّ كثيراً من مستخدمي الذكاء الإصطناعي يقفزون مباشرة إلى السؤال دون أن يكتبوا سطراً واحداً من تفكيرهم الشخصي. كيف عسانا نتخيّلُ النتيجة؟ سيحصلون على إجابات جاهزة، باردة، تقريريّة، بلا ملامح. القاعدة الثالثة تقول: أكتبْ بعضاً من أفكارك، رؤاك، ملاحظاتك، شكوكك، فرضياتك، قبل أن تسأل الذكاء الإصطناعي. لا تكنْ محض متلقّ سلبي لا يعرف العمل في بيئة تفاعلية. هذه القاعدة تعمل على مستويين: هي تنظّمُ وعي الشريك البشري أوّلاً؛ إذ حين نكتب ملاحظاتنا الأولية- حتى لو كانت مشوّشة- فإنّ ذلك يضبط اتجاه السؤال، ويحدّد زاوية النظر، ويمنعنا من الوقوع في دوامة إستطراديّة مغلقة تحومُ حول (أسئلة بلا معنى). في المستوى الثاني هي تعطي الذكاء الإصطناعي مادة أوّلية حقيقية تتيح له الإبداع. الآلة -كما الإنسان- تصبح أكثر قدرة على إنتاج أفكار مبدعة

حين تتلقى شرارة، فكرة أولى، زاوية محددة، أو حتى اعتراضاً أو تعليقات أو رؤى على أفكار مسبقة.

لنتخيّلْ مثلاً إثنين يسألان الذكاء الإصطناعيّ السؤال نفسه ولكن بصياغات مفاهيمية متباينة. **الأوّل: (**حلّلْ لي ظاهرة تباطؤ القراءة لدى الجيل الجديد) . **الثاني:** (لديّ ملاحظة: أرى أنّ التباطؤ في القراءة لدى الجيل الجديد ليس ضعفاً بل تحوّلٌ من القراءة الخطية المباشرة إلى القراءة الترابطية التي تتناولُ كثرة من المؤثرات المستجدّة. أريد أن أختبر هذه الفكرة معك. ما الذي يدعمها وما الذي ينقضها؟).

الفرق بينهما واضح تماماً، كالفرق بين جسد خامد وآخر تنبض فيه الحياة.

القاعدة الرابعة: اطلبْ مزيداً من الخيال... لا مزيداً من المعلومات

الذكاء الإصطناعي مدهش في تقديم البيانات والتحليل؛ لكنّ ما يطلقُ إمكاناتِهِ حقاً هو: **الخيال.** أسوأ ما قد يفعله المرء منّا هو أن يحصر الذكاء الإصطناعي ويقيّده في وظائف تقنية ضيقة: تلخيص، تحليل، كتابة مقالات روتينية، أداء واجبات مدرسية أو جامعية، تحسين صياغة مقالة. يبدو الأمر حينها وكأنّ المرء يستأجره ليعمل كموظف مكتب.

القاعدة الرابعة تحرّرُ الذكاء الإصطناعي (الأصح أنّها تحرّرُنا) من هذا القيد: جرّبْ أن تطلب من الذكاء الإصطناعي سيناريوهات مستقبلية، رؤى محتملة، نماذج لم تُختَبَرْ، عوالم لم تُبْنَ بعْدُ. على سبيل المثال، بدلاً من السؤال: "أعطني معلومات عن تأثير الذكاء الإصطناعي على العمل."يمكنُ أن نسأل: "ارسم لي ثلاثة سيناريوهات لمدينة عربية (الرياض مثلاً) عام 2035 حين يتداخل العمل الحرّ مع الذكاء الإصطناعي. ما شكلُ ديناميات السوق فيها؟ كيف تتغير الطبقة الوسطى؟ ما الوظائف التي تنمو؟ وما التي تموت؟". مثال ثانٍ: "أريد تطبيقاً لظاهرة **متلازمة دانينغ-كروغر Dunning- Kruger Syndrome** على وضعنا العراقي، وما هي المفاعيل المترتّبة عليها في التنبؤ بمستقبل الثقافة العراقية والإعلام العراقي؟". بهذه الأسئلة ونظائرها ننتقل من استخدام الذكاء الإصطناعي كأداة بحث إلى استخدامه كآلة تخيّل معرفي مذهلة المفاعيل.

القاعدة الخامسة: ابنِ مشروعاً مع الذكاء الإصطناعي ولا تكتفِ بمحادثته

الذكاء الإصطناعي يصبح مذهلاً بطريقة تستطيع اختبارَها حين يدخل في مشروع طويل معك. هذا المشروع له أشكال مختلفة بحسب شغفك واهتماماتك المعرفية والمهنية: رواية، بحث، سلسلة مقالات، كتاب، خطة

شركة، أطروحة..... . المحادثة الواحدة محدودة بطبيعتها ؛ أما المشروع فيخلق ذاكرة سياقية، وتطوراً متنامياً في الأفكار، وعلاقة معرفية ترتقي مع الزمن.

القاعدة السادسة: لا تكتفِ بالبحث عن الإجابة. ابحث عن الأفضلية

الذكاء الإصطناعي ليس مُعلّماً كلاسيكيّاً يسلمُكَ الإجابات، بل بيئة تفكير تُعلّمُنا كيف نصل إلى صيغة أفضل كلّ مرة. لذا من الأفضل والأجدى معرفياً أن لا نسأل الذكاء الإصطناعي: ما جواب هذا السؤال؟. الأفضل هو المشاركة المعرفية: أن نقترح جواباً ثم نسأله: "أعطني نسخة أفضل من هذه الفكرة . " ، ثمّ نستمرّ في المشاركة التفاعلية معه سعياً لبلوغ رؤى أفضل. بهذه المقاربة يتحوّل مستخدمُ الذكاء الإصطناعي من متلقّ سلبي إلى محرّر مشارك في صناعة الأفكار.

الخلاصة هي أنّ الإنسان هو من يوقظُ الآلة. لا يوجد ذكاء إصطناعي عظيم دون عقل بشري يقوده بذكاء، ولا توجد خوارزمية عمل أهمّ من تلك التي تقول: كنْ أنت المحفّز الأول، ولا تترك الأمر للآلة. عندها فقط، يصبح الذكاء الإصطناعي امتداداً حقيقياً فاعلاً لوعيك، ومُنشّطاً لأفكارك، ونافذة

على مستقبل لا يُبنى إلّا حين يتّحد الإنسانُ والآلة في رحلة واحدة: رحلة إيقاظ الإمكانات المخبوءة في عقل الإنسان وقدرات الآلة معاً.

لن تتساوى القرعاء بذات الشعر في مملكة الذكاء الإصطناعي ضيّقاً كان أم عامّاً أم فائقاً أم بأي توصيف آخر. أؤكّدُ لك ذلك. هذا بعضُ ما علّمتنيه التجربةُ مع هذه التقنية التي تنبئ بعصر تنوير جديد بممكنات لا نهائيّة أمام من يمتلكون القدرة على التعامل الخلّاق معها، ولا يكتفون بدور الطفيلي العاجز الذي لا يرى الممكنات الهائلة أمامه، ويفضّلُ عليها الدوران في فلك الفوائد البسيطة، العابرة، الكسولة والعاجزة عن رؤية عوالم جديدة وهي تتخلّقُ في الآفاق البعيدة.

*** كاتب ومهندس عراقي**